

خليجيا ولفترة طويلة بدا وكأن الكتابة عن إيران في الصحف موضوعا حساسا للغاية، حيث ساد الاعتقاد بقدرة نظام الخميني على زعزعة الأمن من خلال التلاعب داخليا بالورقة المذهبية، الأمر الذي مثل هما مؤرقا وتحديا كبيرا .
والحق أن بعضا من الحوادث التي اتسمت بجهد عملياتي محدود وخطير من قبل أفراد مبهورين بشعارات النظام الإيراني، كانت متوافقة مع التوترات الإقليمية (الخليجية - الإيرانية) وهو ما جسد شيئا من الواقع كان من اليسير فهم ترابطاته.

ومن هنا جرى العرف على المستوى الخليجي في وضع محددات للإعلام عند تناولات الشأن الإيراني كبادرة على حسن النوايا، من ضمنها الحرص على عدم مبادأة ومحاوثة الإيرانيين مذهبيا أو سياسيا، وقد دفع هذا إلى المزيد من الانكفاء والانغلاق على مستوى دراسات الظاهرة الإيرانية، لكن أخطر ما انتجه من آثار هو في إفرازه حالة من اللامبالاة بإيران ومشاريعها في المنطقة وتطلعاتها في تجاوز مصالح الدول وشعوبها، إلى جانب نشوء حالة من الامتعاض والزجر تمت ممارستها بصور لم تخلو من المساءلة في بعض الأحيان إزاء قنوات فضائية وشخصيات فكرية ودعوية كانت تغرد خارج السرب.

لم تكن سياسة حسن النوايا تلك مع ما صاحبها من محاولات عدة لإزالة الشكوك الإيرانية تجاه حقيقة المواقف الخليجية، لتهدأ من مزاج النظام أو لتسهم في خفض طموحاته، بل الواقع أنها كانت تدفعه لممارسة أكثر عمقا، حيث قرأت تلك السياسة مع استمرارها لفترة طويلة على أنها ضعفا وعجزا وهو ما جرأ النظام الإيراني على المضي قدما في تمتين جسور الصلة مع ما يعتقد بأنه يمثل بالنسبة له نفوذا طبيعيا في المنطقة، ولذا سعى لتعميق الشعور بأنه الحاضن الحقيقي والامتداد الاستراتيجي للشعبة الخليج، مستغلا ما يملكه من رصيد متراكم لموروث تاريخي عدائي متطرف ومصطنع خصيصا لاستهداف العرب باعتبارهم حملة لواء الإسلام، لينطلق منه نحو خطاب تحريضي ضد حكومات الخليج بدعوى الظلم والاضطهاد وحماية المحرومين.

كان الضرب على ذلك الوتر المخادع البضاعة التي أتقنها النظام الإيراني في المنطقة، حيث وفر لها وبسخاء الأدوات التي هيأت له اختراقا واستلابا لعقول بعض من أبناء الطائفة الشيعية في الخليج العربي، والتي كانت تتخيل بسبب طبيعتها الانعزالية وانغلاقها على ذاتها أنها في محيط غير قادر على استيعابها، ولذا كان الصوت الإيراني مسموعا بينها كلما ارتفعت عقيرته بالويل والثبور وعظائم الأمور.

وبسبب ذلك عد الإيرانيون الورقة المذهبية امتيازا يخولهم التدخل في الشؤون الداخلية لدول الخليج، ليستثمروها في إشاعة الفتنة والاضطراب ومحاولة صناعة اصطفاط طائفي يعارض السياسات الخليجية إذا خالفت المصالح الإيرانية، قابل ذلك على المستوى المذهبي الضيق نوعا من التماهي لدى أفراد تم توظيفهم مسبقا للخدمة في مسارات كان أبرز خطوطها التهيج والترويج والتهميش في البحرين، وفي الكويت، وفي العوامة. والأخير خاصة كان أكثرهم عمالة وصبيانية، حيث استغل أجواء التسامح ليغذي مشاريع إيران في المنطقة وليعمل على إيجاد حاضنة شعبية لها .

ومع أن أصوات هؤلاء كانت مسموعة بما فيه الكفاية لإقناع الطرف الإيراني بالهدوء والسكينة، إلا أنه كان يجنح إلى ما هو أبعد من المطلوب، بإسقاطه لأنظمة الخليج وإزاحتها عن السلطة، التي يرى أنها فاقدة لمسوغاتها الشرعية وعلى رأسها الإيمان بالولاية كركن من أركان الإسلام ثم طاعة الولي الفقيه في إيران.

ومن الغريب أن الإيرانيين رغم ما قدموه من دعم ومؤازرة إلا أنهم أخفقوا فعليا في سياسة الاحتواء تلك، حيث أثاروا جدلا واسعا بين الشيعة حول حقيقة دوافعهم وطبيعة انعكاساتها على مستقبلهم في المنطقة، وقد ظهرت بعضا من إفرازات ذلك وبصورة حادة على لسان مؤسس حزب الله اللبناني صبحي الطفيلي، والذي صرح بقوله: "إيران لا تهتم بالشيعة فنحن وقود دفعوا ثمننا" كما قال: "إن السياسة الإيرانية ستلحق بالشيعة بشكل خاص خطراً عظيماً وضرراً كبيراً وعلى إيران أن تعيد النظر بكل سياساتها، فعلى إيران أن توحد المسلمين والشعوب لا أن تفرقها وتمزقها . القيادة في إيران أخطأت أيضاً في طهران فما يجري أسوأ أنواع الديكتاتوريات من كم للأفواه والاعتداء على الناس وهو أمر مخالف لشرع الله".

وفي وسط ذلك الجدل الذي سيطر على الساحة الشيعية، كان هاجس فقهاء الشيعة العرب هو الخروج من دائرة السيطرة الإيرانية الذي وجدوا أنفسهم فيه ، دون أن يكون لديهم خطة لتحجيم النفوذ الإيراني داخل بلدانهم، وهو ما سهل على الإيرانيين تتبعهم ، قال العلامة اللبناني السيد محمد علي الحسيني، أمين عام المجلس الإسلامي العربي في لبنان للعربية نت : "نحن مجموعة من علماء الشيعة العرب في دول مثل العراق والبحرين ولبنان بدأنا بالتحرك، ضد ولاية الفقيه والنفوذ الإيراني ، فبدأ الحرس الثوري يستهدفنا .. في العراق مثلاً الشيخ جواد الخالصي تعرض للتهديد وذهب خائفاً على نفسه إلى سوريا ، وكذلك الشيخ حسين المؤيد الذي توجه إلى الأردن" . وتابع " الإمام موسى الصدر خرج على توصيات قيادة الثورة الإيرانية ، وقام بتقوية الخط الشيوعي العربي، فقاموا بتغييبه من أجل تغييب الخط الشيوعي العربي ، إضافة إلى التآمر على السيد محمد باقر الصدر في العراق وقتله" .

كان اللبنانيون والعراقيون الشيعة أكثر من اكتوى بنيران تسلط ولاية الفقيه الإيرانية ذات المرجعيات الصفوية ، حيث مازال يزعج بأبنائهم ومستقبلهم في حروب عبثية لا طائل من ورائها سوى إشباع نزعة التوسع والهيمنة لدى طهران ، والتي شكلت إحدى ثغرات العلاقة مابين الطرفين . ولن يختلف الأمر كثيرا في الحاليتين السورية واليمنية، واللذان عرتا ولاية الفقيه من إنسانيته وجردتاه من قيم الكرامة والعدالة والحرية .

لقد صار بمقدور شيعة دول الخليج العربي رؤية نتائج التدخل الإيراني في البلدان العربية واضحة السلبية ، كما بات بمقدورهم رؤية المجتمع الإيراني من داخله حيث البؤس والشقاء وغمط الحقوق والتي تسببت في سخط شعبي شديد كاد أن يعصف بالنخبة الحاكمة لولا مهارتها في استخدام وسائل القمع الوحشي ، تلك المهارة التي عرضتها يوما ما على إحدى الحكومات الغربية لمواجهة اضطرابات الشارع فيها !!

إن فقهاء ومثقفي الشيعة الخليجيين باتوا مطالبين أكثر من غيرهم بالحؤول دون قيام الإيرانيين باستثمار تواجدهم في أوطانهم لكسر السلم الاجتماعي وخرق قواعد الأمن ، فلديهم من ثاقب النظر والتعقل ورصيد العلم والمعرفة بالواقع الإيراني ما يكفي لمحق المكر الصفوي وكشف قناعه الخبيث. فالنظام في إيران وإن أظهر بشيء من الزهد آلة التقوى فلن يكون بمقداره تغطية أعين الكادحين والمحرومين عن رؤية الامتيازات التي تملكها النخبة وأبنائها، كما ولن يكون بمقداره كف الأصوات عن فضح مواقفه أو حجب العقول عن التفكير في حقيقة مظاهره ، ولو أتقن بشيء من التباكي صلته بالسماء فلن يكون بمقدوره إلهاء الكادحين والمحرومين عن النظر لمواضع أقدامهم حيث تسرق الأرض وينخر الفساد ويعبث الدود .

لقد اصطنع نظام الخميني ولاية الفقيه لتسوق له استعماراً يمتد محيطه للخارج، وليروج لهيمنة هو فيها رمز الاستكبار والظلم ، ولا أشبه في ذلك من قول شاعر أفريقي من جمهورية غانا: " عندما جاء المستعمرون كان معهم الإنجيل و معنا الأرض و بعد وقت قصير أخذوا منا الأرض وأعطونا الإنجيل"!

كاتب المقالة : د / محمد صقر

تاريخ النشر : 29/05/2015

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammdfarag.com